شـقوة المصيـــر

محمد سعد زغلول سالم

الأربعاء ٢٥ يونيو ١٩٧٥

وكان دَوْماً يردد لعقله : ما أندَرَ ما تمنَحْه الحياة للبشر من مباهِج وأفراح وما أكثرَ ما تفيضُ به عليْهم من آلام وأحزان ، آلام البداية وأحزان النهاية .. آلام اليأس وأحزان الحاجَة .. آلام الخوف وأحزان الفراق .. آلام المَولد وأحزان الموت .. نعم .. المولد والموت وما بينهما من سنين وأحداث تفيضُ دَوْماً بما تحمله الحياة من آلام وأحزان. وكان يُدرك كم هىَ غريبة هذه الطبيعة التى خلقه اللهُ بها وكم هى غريبة كلُّ جوانب هذه الطبيعة .. فعقله غريب فى تفكيره وقلبه غريب فى إحساسِه ووجدانه غريب فى حَدْسِه وخياله غريب فى أحلامه وفؤاده غريب فى مشاعره نحو كلِّ مظاهر الحياة وكلِّ معالم الوجود .. كلُّ شىءٍ خُلِقَ به وطُبِعْ عليه غريب. فهذا الكون الشاسِع الرحْب الذى لا يستطيع العقلُ أن يتصوَّر حدودَه وأبْعادَه سجن ضيِّق خانق يُطبِق على روحه بكلِّ معالم الجمال والجماد فيه .. هذه السماء الصافية التى تحيطُ به من كلِّ جانب وهى قادرة فى أىِّ لحظة على أن تمنع عنه نسيمَ الحياة .. هذه الأرض الطيِّبة التى تحملُه فوقَ أديمِها وهى تنتظر إنقضاءَ أَجَله لكى تُغَيِّبَه فى ثراها .. هذه الشمْس الدافئة التى لا تكُفَّ عن الشروق كلَّ صباح والغروب كلَّ مساء فقط لتمنحَه النورَ والحياة إلى أن تحِينَ نهاية هذه الحياة التى تمنحْه إياها معَ بداية كلِّ يوم جديد .. هذا القمر الصغير الذى لا يتوقَّف عن البزوغ والأفول كلَّ ليل بغير إنقطاع ليؤجِّجَ حَسْرَته ولوعته على شقوة وتعاسة المصير .. هذه النجوم التى تتناثر بغير إنتظام فى أرجاء الكون السحيق وهىَ تترقَّب مَجىءَ النهاية لتتهاوَى وتتَداعَى وتفتك بكلِّ ما فى هذا الوجود الساحر الرائع الفاتن البديع من أشياءٍ وكائنات .. هذه العنادِب المُغَرِّدَة بين الخمائل فى وداعَةٍ وحُبُور وهذه الفراشات الحائِمة صَوْبَ حَتْفِها حولَ الضياء .. هذه البراعِم الناعِسَة فى أحضان الفجْر الهادىء وهذه الزهور المتلهِّفة لمقدم الربيع .. هذه الأنهار والبحَيْرات وهذه الينابيع والغدران وهذه الأنداء والأمطار التى تمنحُ الحياة للبشر والحقول والحيوانات والطيور والصحارى والمُروج ولكلِّ ما فى الحياة من جمادٍ وأحياء. هذا الوجود الذى كان يتأمَّله مذهولاً مأخوذاً مسحوراً بمعالمه ومعانيه لم يكن غير سجن مُرَوِّع رهيب مُخيف يجثمُ على عقله برمُوزه التى لا يفهَم كنهَها والتى تبعَث فى نفسه الرُعْبَ والخوفَ والرهبة من كلِّ ما يراه ويشهدُهُ منها فى كلِّ لحظةٍ من تفكيره فيها وإحساسه بها وإدراكه لها .. هذا الزمن الذى يمضى فى طريقِه خلاله ومن حوله بغير أن يعْبأَ به أو يلتفِت إليه وهو يتبعُهُ إلى حيث لا يدرى دونَ أن يستطيع إعتراضاً رغمَ أنه خُلِقَ من أجْله لأنه لم يكن لَيوجَدْ لولا إدراكه له .. وهذا العُمر الذى لا يستطيع جَسَدُه فكاكا أو مهْرباً من بذور الفناء التى يبذرُها فى أعماقه ويغرس نَبَاتِها فى كل خليةٍ من كيانه فى كلِّ لحظة تنقضى منه وهو يتبعُ الزمنَ فى مسيره صوبَ النهاية التى يبدو أنه ما مِنْ أمل فى تأجيلها أو فى الخلاص منها .. وهذا الغيْبُ الغامض الذى يُحَدِّد كلَّ ما يفعل وكلَّ ما يَلْقَى وكلَّ ما

يحدث فى حياته منذ مبدئها وحتى منتهاها وهو لا يستطيع أن يراه أو يعرفه أو يلقاه أو يتنبَّأ بما يُخبِّئه له فى جُعْبَته من أحداث أو أقدار أو مصير. وبلغ به شقاؤه مداه .. فقد كان يحيا مثلَ سجينٍ بغير ذنب وبغير قضية وبغير حُكم فى سجنٍ بلا مكان وبلا زمان وبلا نهاية إلى أن تحينَ النهاية ، هكذا كان يرى حياة الإنسان فى هذا الوجود الغريب .. سجيناً لقدره وأسيراً لمصيره وعَبْداً لطبيعَته التى خُلِقَ بها ولا يستطيع منها فِكاكاً. فقد ضاع الفكرُ من عقله مثلما يضيعُ الكثيرُ فى كلِّ يوم له فى حياته التى تمضى كقطرة ماء عاجزة فى خِضَّم هذا الوجود الهادر إلى مصيرها الذى لا يريده ولا يتقبَّله رغمَ إدراكه ويقينه من أنه لا مهربَ منه أو مَفَّر ؟!. نعم .. كانت هذه هى جذور الشقاء المُروِّع فى طبيعته الغريبة والتى نَمَت وتغلغلت وغارَت حتى النخاع فى عقله وقلبه وخياله ووجدانه .. ويَالَهُ من شقاء .!. فحتى الآن وطوال سنين العمر الماضية منذ بدأ إدراكه للحياة وللوجود وهو لا يريد ولا يستطيع أن يتقبَّلَ قدَره ومصيره .. وعندما كانت تستبدُّ به شقوةُ المصير كان يردد لنفسه : رُبَّما أفعلُ ذلك يوما ما فيما بعدُ .. متى .؟. لا يعرف .!. رُبَّما عندما يفقدُ إدراكه لحقيقة المصير .. رُبَّما عندما يعرف يقيناً حقيقة المصير .. رُبَّما عندما تئوبُ روحه بغير رجْعَةٍ إلى هذا المصير .!. لم يكن يعرف متى سيتقبَّل قدَره ومصيره .. فقط كان يدعو الله دَوْماً أن تَرِينَ السَكِينةُ على روحه وتطمَئنَّ نفسه ويثوبَ عقله إلى رُشدِهِ قبلَ أن توافيه المنيةُ فى أجَلها المحتوم وهو لازال حائراً خائفاً ضَّالاً بغير هُدىً .. وأن يخفف عنه ما يملؤ عقله وخياله من خوفٍ ورُعْبٍ وشقاء كلما طرأ بخاطره أنه قد يموتُ قبلَ أن يثوبَ عقله إلى رُشْدِهِ ويَرضى بقدره ويتقبَّلَ مصيرَه ويعملَ على تدارك ما فات.

